الفصل الثلاثون

ذكر ما فى مصر أم الدنيا من مكاتب الصبيان لتعليم القراءة

فى القاهـرة ألفان وخمسة عشر مـكتب للصبيـان أوقافها دائمة، بالإضافـة إلى ألفا مكتب لتعليم الحساب إلا أن أوقافها معطلة، وقد أقام مائة وستة وخمسون سلطانًا على أسبلـة جوامعهم مكـاتب لتحفـيظ القرآن الكـريم، ولسائر الوزراء والوكـلاء والأثرياء وأصحاب الخيرات أربعـة آلاف سبيل، وفوق كل سبيل مكتب مـنقوش ذو كوات وكأنه قصر يوسف. وهذا دأب أهل مصـر، فكل مكاتبها مقامة فوق الأسبلـة، وكلها مكسوة بقماش زنبورى، وفى هذه المكاتب يتلو جميع الصبيان آيات الذكر الحكيم.

وطبق هذا الإحـصاء يوجد فى مصـر كلها ستة آلاف ومائـة وستة وسبعون مـكتبًا، وأغلبها تابعة لجوامع السلاطين.

وفى النصف مـن شهر رمضان يجتمع مدرسـو مكاتب السلطان الغـورى والسلطان حسـن والسلطـان قلاوون والسـلطان الأشرف والـسلطان المـؤيد وغيـرها من مكـاتب السلاطين والوزراء وحولـهم الصبيان من الفقراء والمـعوزين وينقسمون طائفـتين: طائفة تقول: (يـا حنّان)، وطائفـة أخرى تقول: (يا مَـنّان)؟ وقد تشابـكت أيديهم وتـعالت أصواتهم ومروا فى وسط السوق وقد تبعهم شيوخهم وانطلق الجميع إلى مكتب الناظر. وينال جـميع الصبـيان من الوقـف قماشًا من حـرير مصر والخلـع والقلانس الحـريرية ويلبسونها، ويتقاضون مرتباتهم وهى من أربعين أو خمسين باره مصرية، ثم يمضون فى طريقـهم فرحين قـائلين: «يا حَـنان يا مَنـان» وتدوم الحال علـى ذلك فى القـاهرة من منتصف رمضان حـتى يوم عرفة، وتموج مكاتب الصبيـان بهم ويمضون زرافات زرافات إلى نظارهم.

حقًا إنها لأوقاف عظيمة، وفى وقت الظهـر والعصر يصعد المؤذنون الآذان من منائر جميع جوامع السلاطين وبذلك تغمر عظمة الله تعالى كل أرجاء القاهرة.

وفى المكاتب التى على الأسبلة يترنم أربعون أو خمسون صبيًا رخيم الصوت بمنظومة المحمدية، ويدوم الآذان فى القـاهرة مدة ساعة بنغمات حجاز وسيكـاه وحسينى، ومثل هذا الآذان فى مكاتب الصبيان لا وجود له فى بلاد أخرى.

وبعد الصلاة يجتمع الصبيان جميعًا فى مكان ويتلون على العموم سورة المُلك، ثم يصلون صلوات طويلة، ويدعون بخير لصاحب الثواب. وهذه العادة غير معروفة كذلك فى بلد آخر.

وفى هذه المكاتب يتنافس الصبيان فى تصعيد الآذان بأصوات رخيمة، وأنفاس طويلة، وهذا ما تُشَنَّفُ به الأسماع وتنشرح به الصدور. وإذا ما مر موكب بعض الأعيان أو الوزراء وشربوا من الأسبلة التى تعلوها مكاتب الصبيان رفع الصبيان جميعًا أصواتهم بقوله تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] فيكرمهم بعض أهل الكرم. وهذا هو النظام المرعى فى مكاتب الصبيان فى مصر.

أما مكاتب صبيان الترك فسبعون، ولكنها ليست مكاتب مقامة فوق الأسبلة، وكأنها القصور، ففى الحارات وبالقرب من تكية سيدى الكُلْشَنى يتولى التدريس معلمون وخطاطون فى دكاكينهم لسبعين أو ثمانين طفلا تركيًا، ويدرسون علم الحساب وعلم الكتاب وعلم القراءة، وليس بينهم أبناء الفلاحين ولا أبناء الحضر، وجميع معلمى هذه المكاتب من الترك الذين يسكنون فى هذه الحارات.

* * *